إطار المذهب الإنساني

بقلم جوليان هكسلي

ترجمة رمسيس عوض

في عام ١٩٦١ صدر كتاب « اطار المذهب الانساني » واشترك في وضعه لفيف من أئمة العلماء والمفكرين يبلغ عددهم خمسة وعشرين عالما على رأسهم عالم البيولوجيا المعروف جوليان هكسلي . « واطار المذهب الانساني » كتاب خطير للغاية . وترجع خطورته الى سببين : الاول ، لان واضعيه من كبار العلماء والمفكرين ممن يقدرون مسؤولية الكلمة ولا يلقون القول على عواهنه. والثاني، لان الكتاب يدعو الى ثورة فكرية جديدة على أساس الايمان بالعلم والانسان وبنظرية التطور بوجه خاص .

ونحن نقدم للقارىء العربي ترجمة لمقدمة الكتاب الطويلة التي كتبها جوليان هكسلي يشرح فيها اتجاه الكتاب العام . وفي هذه المقدمة يبين ج. هكسلي حاجة العالم الراهن الى فلسفة كلية شاملة متكاملة تؤلف بين أشتات التفاصيل العلمية ، وتحل محل أجزاء المعارف الانسانية المتناثرة في الوقت الحاضر . د.ع.

* *

لقد بدأ الانسان مرحلة التطور النفسية ـ الاجتماعية . والتقدم الذي أحرزه في تلك المرحلة من مراحل التطور يتضمن تغييرا جذريا في الانظمة الفكرية Idea System (١) السائدة . ويصاحب هذا التقدم الانتقال من التنظيم العام القديم في التفكير والمعتقدات الى تنظيم آخر جديد . وتقتضي زيادة المعرفة التي تتطلب التنظيم بطرق جديدة أكثر شمولا عن ذي قبل ، كما يقتضي فشل الافكار القديمة التي سعت الى اقامة المعتقدات حول نواة من الجهل ، ضرورة ايجاد نموذج في الفكر جديد ، واتخاذ موقف جديد .

وتدور الانظمة الفكرية العامة دائما ـ سواء شعوريا او لا شعوريا ـ حول معتقدات تتعلق بالمصير البشري ، كما أن هذه الانظمة الفكرية تؤثر دائما في موقف الناس العام من الحياة ، وطريقة معالجتهم للشئون العملية . فالذين ينشأون تحت ظل نظم فكرية مختلفة ، يجدون من العسير عليهم فهم اسلوب غيرهم في الحياة وموقفهم منها . والانسان الصناعي الحديث يجد انه من الصعب عليه ان يفهم الشعوب القبلية التي تدور نظمها الفكرية حول فكرة قوة السحر وسلطانه ، كما انه يجد نفس الصعوبة في فهم فكرة الانسان الغربي في القرون الوسطى الذي يرتكز نظامه الفكري حول الاعتقاد بأن الارض تتوسط الكون ، خلقها ويهيمن عليها كائن فوق الطبيعة ، قادر على كل شيء ، عليم بكل شيء (٢)

وتسع رحمته كل شيء .

لقد شاهد العصر الحاضر المضطرب غير المستقر والذي نفض عن نفسه الاوهام ، بعد أن خاض حربين عالميتين ، انهيارا واسع الانتشار في المعتقدات التقليدية ، وان كان قد أدرك ادركا متزايدا بأن النظرة المادية الصرفة لا تستطيع أن تشكل أساسا سليما للحياة الانسانية . كما انه شاهد أيضا نموا هائلا يصل الى حد الخيال في المعرفة الخاصة بالكون المادي ، وبالحياة والعقل ، والطبيعة البشرية والمجتمعات الانسانية ، والفن والتاريخ والدين .

ولكن هناك شرائح كبيرة من المعرفة الجديدة ملقاة في اهمال من حولنا ، لا نفع وراءها ولا طائل ، دون ان تأتلف او تتكامل في أفكار ومباديء مثمرة ، ودون أن تتضح لها علاقة أو صلة بالحياة الانسانية ومشكلاتها .

وفي نفس الوقت ، بدأ عدد متزايد من الناس يحس بأنه يجب على الانسان أن يعتمد على نفسه فقط في مجابهة شئون الحياة ومشكلة المصير والعمل على حلها . ولكن الشك المتزايد يتنابهم في امكانية تحقيق الانسان لهذا الهدف على الاطلاق تحقيقا وافيا وكافيا .

واذا شئنا ألا يفضي الموقف الى الفوضى واليأس ، أو الهروب من واقع الحياة ومشاكلها فيجب على الانسان أن يعيد توحيد حياته في اطار يتكون من نظام فكري يبعث على الرضا . وعليه لكي يحقق هذا ان يقوم بمسح الموارد التي تتوفر لديه ، سواء في العالم الخارجي أو في عالم الذات الداخلية ، وأن يحدد اهدافه ، ويبين موقفه ، ويخطط مجمل حياته المستقبلة . وهو بحاجة الى استخدام أقصى مجهوداته في المعرفة والخيال حتى يبني نظاما في الفكر والمعتقدات سيكون له بمثابة الاطار الذي يرتكز عليه وجوده الحاضر ، والهدف النهائي أو المثالي لتطوره في المستقبل كنوع ، كما سيكون مرشدا وموجها فيما يختص بالتخطيط ، وبالعمل الذي يتناول الجانب التطبيقي من الحياة .

وسأسمي ببساطة هذا النظام الفكري الجديد ، الذي شاهدنا مولده نحن الذين نعيش في منتصف القرن العشرين ، بالمذهب الانساني، لانه يمكن اقامته فقط على فهمنا للانسان وعلاقاته ببقية بيئته . ويجب على المذهب الانساني ان يركز أضواءه على الانسان كعضو حي ، وان كان عضوا حيا ذا خصائص ينفرد بها . كما يجب على هذا المذهب ان ينتظم ويدور حول حقائق التطور وافكاره ، مدخلا في الاعتبار الاكتشاف الذي يتلخص في كون الانسان جزءا من عملية تطورية شاملة ، ولا يمكنه ان يتجنب لعب دور حاسم فيها .

وهذا المذهب الانساني يقوم بالضرورة على التوحيد بدلا من الثنائية ، ويؤكد وحدة العقل والجسد معا . وهو شامل وكلي بدلا من ان يكون جزئيا وتفصيليا ، يؤكد استمرار الانسان مع بقية الحياة ، واستمرار الحياة مع بقية الكون . وهو مذهب طبيعي بدلا من ان يكون فوق الطبيعة ، يؤكد وحدة الروح والمادة ، وهو مذهب يشمل رحاب العالم بدلا من أن يكون سببا للفرقة ومدعاة للتقسيم ، مؤكدا وحدة الجنس الشري بأكمله . ويتجلى شعار من يدين بالمذهب الانساني في هذا القول « اني أفكر أنه ليس هناك انسان غريب علي . والمذهب الانساني ينظر الى الاشياء على انها عملية هادفة ، وليست آلية استاتيكية ثابتة ، كما ينظر الى الاشياء على ضوء الكيف والتنوع الى

---

(١) اذا كان هناك احتياج الى مصطلح فني، فاني اقترح كلمة noô - System (النظام الفكري) متبعا استعمال تيلهارد دي شاردين Teilhard de Chardin (في كتاب The Phenomenon of man ظاهرة الانسان) الصادر في لندن ، طبعة كولنز عام (١٩٥٩) للدلالة على منطقة العقل ومنتجاته التي خلقها ويسكنها الانسان ، وفي نفس الوقت سأداوم على استعمال المصطلح غير الفني Idea- System بشرط أن يشمل المعتقدات والمواقف والرموز الى جانب المفاهيم والافكار العقلية Intellectual concept and Ideas

(٢) يقتضي المسلك الصحي لانسان يعيش في منتصف القرن العشرين أن يحاول ان ينظر بعين الاعتبار الى المناقشات حول الملائكة التي وردت في كتاب القديس توماس الاكويني Summa Theologiae او ان يسعى لفهم بأساس الابدلوجي لكثير من العبادات التي يصفها فريزر في كتابه The golden Bough

جانب الكم والوحدة . وهو يرفض المطلقات ومن بينها الحقيقة المطلقة ، والاخلاق المطلقة والكمال المطلق والسلطة المطلقة . ولكنه يؤكد رغم ذلك أنه يمكننا ايجاد مستويات نستطيع بمقتضاها الحكم حكما صائبا على افعالنا وأهدافنا . ويؤكد المذهب الانساني امكان زيادة المعرفة والفهم ، وان هناك سبيلا الى تحسين السلوك والتنظيم الاجتماعي ، وانه من الممكن ايجاد توجيهات مرغوب فيها اكثر من التوجيهات الراهنة للتطور الفردي والاجتماعي . والمذهب الانساني ، كهدف اسمى يسعى اليه الانسان المتطور ، ينبذ القوة والسلطان ، او مجرد الكفاءة أو الاستغلال المادي ، ويحقق كهدفه الحق نصيبا ومرتبة أرقى مما سلف .

وأهم الامور جميعا ان هذا المذهب يؤلف بين موارد شتات معارفنا المبعثرة والتي يظل جلها لا يستفاد منه وينظمها ليقدم نظرة جديدة الى المصير الانساني ، تلقي الضوء على كل جوانبه ابتداء من العملية الكونية العريضة الباقية حتى انظمة الحكم والدولة في يومنا الراهن ، ومن خيوط علم الاكلوجيا (١) على الارض التي تنسجها الكواكب حتى الحياة الفردية التي تتشابك في هذه الخيوط ، ومن الجذور المعتمة في ماضي الانسان حتى فجر امكانياته في المستقبل البعيد . وهذه النظرية الجديدة هي نظرية تطورية حتما . وقد شرفتني جامعة شيكاغو عند الاحتفال بمرور مائة عام على اذاعة داروين لنظرية التطور بأن طلبت مني ان القي الخطاب الذي يحتفى بهذه الذكرى . ومن أجل اعطاء شيء من الفكرة عن هذه النظرة الجديدة ، أجدني لا استطيع ان أفعل شيئا أفضل من الاقتباس منه .

هذا الاحتفال المئوي هو احدى المناسبات الاولى التي جابه فيها الانسان بصراحة خضوع كل جوانب الحقيقة لمبدأ التطور : من الذرات والنجوم الى الاسماك والزهور ، ومن الاسماك والزهور الى المجتمعات والقيم الانسانية ـ وأن الحقيقة بأسرها في واقع الامر هي عملية تطور واحدة . وزمننا هو أول فترة اكتسبنا فيها المعرفة الكافية لان نبدأ في رؤية الخطوط المجملة العامة لهذه العملية الهائلة الاتساع ككل .

وتتضمن نظرتنا التطورية الان الاكتشاف الذي يتلخص في ان التقدم البيولوجي موجود ، وأنه يتم على شكل سلسلة من الخطوات أو الدرجات ، وأن كل خطوة أو درجة تشغلها مجموعة من الحيوانات أو النباتات الناجحة ، وأن كل مجموعة تقفز الى الوجود من مجموعة سابقة لها ، وتتميز بنموذج من التنظيم جديد ومتحسن .

والتنظيم المتحسن يعطي ميزة بيولوجية . وتبعا لهذا يصبح النوع الجديد مجموعة ناجحة أو سائدة . وهو ينتشر ويتكاثر ويتباين في تعدد فروعه . وفي العادة ينهض النجاح البيولوجي الجديد ، من الناحية البيولوجية ، على حساب المجموعة القديمة التي كانت سائدة . فيخرج منها النوع البيولوجي الناجح ، أو يغتصب مكانها ويحل محلها . وهكذا نجد أن نشأة الحيوانات الثديية المشيمية مرتبط بانقراض الزواحف الارضية ، وان الطيور قد حلت محل التيرسورز (Pterosaurs زواحف منقرضة ذات أجنحة) في سيادة الجو .

وعلى كل حال فانه يحدث احيانا ، عندما يكون الانتقال الكامل الى نوع جديد من التنظيم هو نفسه انتقالا كاملا الى بيئة جديدة تماما ، ان النوع الجديد قد لا يزاحم أو ينافس النوع القديم . وقد يظل النوعان في تعايش كامل الازدهار . وهكذا فان التطور الذي طرأ على فقريات اليابس لم يحل بحال من الاحوال دون النجاح المستمر لمجموعة البحر السائدة وهي الاسماك العظمية

والنماذج التالية للتنظيم الناجح هي نماذج ثابتة . وهي تمثل الاستمرار ، وتلح في البقاء خلال فترات طويلة . فقد استمرت الزواحف في كونها زواحف مدة ربع بليون عام . والسلاحف والثعابين والسحالى لا يزال من الواضح انها زواحف . وكلها تغيرات في موضوع تنظيمي واحد لا يتغير .

ويصعب على الحياة أن تتجاوز الثبات وتتخطاه ، وأن تصل الى تنظيم جديد ناجح . وهذا هو سبب الندرة الكبيرة في الانتقالات البيولوجية الى أنواع جديدة سائدة ـ كما أنه السبب أيضا في أهمية هذه الانتقالات . والنوع الزاحف تفرع الى ما يربو على الاثنتي عشرة مجموعة هامة أو نظام هام . ولكنها استمرت جميعا داخل أطار الزواحف فيما عدا اثنتين انتقلتنا الى نماذج جديدة من الطيور والحيوانات الثديية ، مذهلة فيما اصابت من نجاح .

وفي المراحل الاولى ـ كانت المجموعة الجديدة ـ مهما كان النجاح النهائي حليفها ـ قليلة وضعيفة ، ولا يظهر عليها أية دلائل للنجاح الذي قد تصيبه في نهاية الامر . والانتقال فيها ليس أمرا وليد الساعة ، ولكنه ينجم عن سلسلة التحسينات التي تندمج في نهاية الامر وتتحول الى التنظيم الثابت الجديد .

وفي حالة الثدييات ، ظهر الشعر أولا ثم تلاه اللبن ، فالتنظيم لدرجة حرارة الجسم الذي كان جزئيا في بادىء الامر ، والذي أصبح فيما بعد تنظيما كليا . وبتطور المشيمة ، حدث تطور داخلي فيما يختص بالحمل بدا قصيرا ، ولكنه طال في نهاية الامر ، وقد استمرت الثدييات الصغيرة وغير ذات البال في الوجود والتطور لمدة مائة مليون عام أو ما يقرب قبل ان يتحقق لها الانتقال الكامل الى السيادة التامة في العصر السنيوزي Cenozoie

وقد حدث شيء شبيه جدا بهذا خلال انتقالنا نحن من التنظيم الخاص بالحيوانات الثديية الى التنظيم النفسي ـ والاجتماعي . واسلافنا من القردة قبل ظهور الانسان ، لم يصيبوا قط نجاحا عظيما او يكونوا ذوي عدد كبير . وكانت هناك ضروره لسلسلة من الخطوات حتى تتحول القردة الى انسان مثل النزول من قمم الاشجار ، والوضع المنتصب ، وبعض الكبر في حجم المخ ، والزيادة في عادات أكل اللحوم ، واستعمال الادوات ثم صنعها ، ثم زيادة أكبر في تضخم حجم المخ ، واكتشاف النار ، والكلام الحقيقي واللغة الحقة ، والتعقيد في الادوات والشعائر الدينية . هذه الخطوات استغرقت ما يربو على نصف مليون عام . ولم يتمكن الانسان من البدء في استحقاق لقب النوع السائد الا منذ نحو مائة الف عام . ولم تكتب له السيادة التامة الا منذ ما يقرب من عشرة الاف عام .

وبعد ظهور الانسان في كامل صورته كانسان ، استمر التطور في الحدوث . ولكن مع فرق هام . فتطور الانسان لم يعد بيولوجيا بل أصبح اجتماعيا ـ ونفسيا . ويجري هذا التطور وفق جهاز التقاليد الثقافية الذي يتضمن تراكم تكرير الانسان لذاته واعادة نسخ نفسه كما يتضمن التنوع الذاتي لجوانب النشاط ونتاج هذا النشاط . وعلى هذا الاساس فقد تحققت خطوات هامة في مرحلة التطور الانساني بالانتقال الى نماذج جديدة من التنظيم الفكري ، ومن المعرفة ، والافكار والمعتقدات ـ الى تنظيم ايدويولوجي بدلا من ان يكون فسيولوجيا أو بيولوجيا .(١)

وهكذا نجد تعاقبا في الانظمة الفكرية الناجحة بدلا من التعاقب في الانظمة الجسمية الناجحة . وينتشر كل نظام فكري جديد ناجح ، ويسود قطاعا هاما من قطاعات العالم حتى يحل محله نظام منافس له ، أو حتى يتمخض هو نفسه ، عن نظام يخلفه عن طريق الانتقال الى نظام جديد في الفكر والعقيدة . ويكفينا ان نفكر فقط في نموذج الفكر القبلي القائم على السحر ، ونموذج العصور الوسطى الذي يلتف حول اله ، ويدور حول فكرة السلطة الالهية والالهام الالهي ، ونشأة نموذج العلم في القرون الثلاثة الماضية الذي يدور حول فكرة التقدم الانساني ، ولكنه على كل حال تقدم يخضع لسيطرة علوية فوق الطبيعة : وفي ١٨٥٩ فتح داروين الباب لنموذج جديد من التنظيم الايدولوجي والتنظيم الفكري والعقائدي الذي يرتكز على التطور .

ونستطيع أن نتبين خلال تلسكوب خيالنا العلمي وجود هذا التنظيم

---

(١) العلم الذي يبحث في أثر البيئة على الكائنات الحية .

(١) انظر الى كتاب ج.س هكسلي Evolution in Action لندن ، شاتو آند وندوز ١٩٥٣ وكتابه New bottles for new Wine شاتو آند وندوز ، نيويورك هاربر آند بروس ١٩٥٧ .

الايدولوجي الجديد المتحسن رغم أنه في مراحل تكوينه الاولى . ولكن الكثير من تفاصيله لم يتضح بعد ، ويمكننا ان نرى كثرة وصعوبة الخطوات الصاعدة المطلوبة للوصول به الى تطور كامل .

دعني أغير الاستعارة التي استخدمها . كان من الجلى للغاية لدى الجميع ـ باستثناء أولئك الذين اغمضوا عيونهم أو أداروها عن عمد ، أو الذين حرمهم رجال الدين او مدرسوهم المشرفون على توجيههم من النظر ـ انه من المحتم ان تصبح حقيقة التطور وفكرته الخميرة المميزة الرئيسية أو القالب الحي لتنظيم فكري سائد جديد . وفي القرن الذي انقضى منذ صدور كتاب (اصل الانواع) بذلت محاولات عديدة لفهم مضمونات التطور في ميادين كثيرة : من امور الكون الزاخر بالاجرام السماوية الى شئون الانسان . وكانت هناك عدة مجهودات مبدئية ، وفجة الى حد كبير لادماج حقائق التطور ، ومعرفتنا بعملياته في تنظيم شامل لفكرنا العام .

وتعني سائر الانظمة الفكرية السائدة بمشاكل الوجود النهائية والمباشرة على حد سواء . او لعله يجدر بي أن اقول انها تعني بأقصى المشاكل النهائية التي يستطيع الفكر في الوقت الراهن ان يتصورها أو حتى أن يصيغها . وتعنى سائر الانظمة الفكرية السائدة باعطاء شيء من التفسير عن الانسان وعن العالم الذي يعيش فيه وعن مكانه والدور الذي يلعبه في ذلك العالم ـ وبمعنى آخر اعطاء صورة مفهومة للمصير الانساني ، ودلالة الانسان .

لقد بدأت المعالم العامة للصورة التطورية الجديدة التي ترسم المصائر النهائية تتضح بجلاء . فمن شأن مصير الانسان ان يكون العامل الوحيد في تطور هذا الكوكب في المستقبل والانسان هو أعلى نوع سائد تم انتاجه فيما يزيد على بليونين ونصف من الاعوام قضاها في تحسن بيولوجي بطيء كان ثمرة عمليات الانتخاب الطبيعي العمياء والقائمة على المصادفة المحضة . واذا قدر له ألا يدمر نفسه ، فأمامه على الاقل مدى مماثل في الوقت المتطور يباشر فيه شئونه .

وفي اثناء الجزء الاخير من التطور البيولوجي برز العقل ـ وهو الكلمة التي نطلقها على أوجه النشاط والخصائص الذهنية للكائنات الحية ـ بوضوح وعنفوان أكبر، واصبح يلعب دورا اكبر في حياة الافراد من الحيوانات . وفي نهاية الامر ، تطور حتى أصبح الاساس والمنبع الرئيسي لما تبعه من تطور وان كان التطور الان قد أصبح ثقافيا بدلا من ان يكون ورائيا او بيولوجيا . ويدين الانسان بالفضل الى هذا الانتقال الذي سببته عملية الانتخاب الطبيعي الاتوماتيكية وليس الى أي جهد واع من جانبه فيما حققه من مركز تطوري سائد .

ولذلك فان الانسان على قدر هائل من الاهمية والدلالة . لقد طرد الانسان من المركز الوسيط في الكون الذي صور له الوهم انه يشغله ، الى مكان متناه في الصغر في وضع خارجي ناء وفي مجرة لا تعدو أن تكون واحدة من مليون مجرة . ويبدو انه من المحتمل الا يكون فريدا في كونه كائنا يحس ويشعر . ولكن من ناحية أخرى نجد أن تطور العقل او الشعور حدث نادر الوقوع للغاية في هذا الكون الفسيح الذي لا معنى له والذي ينتفي فيه الحس والشعور ، ومن الجائز جدا أن يكون نوع الحس والشعور الذي يتميز به الانسان أمرا فريدا . ولكنه الانسان على أية حال شديد الاهمية وبالغ الدلالة فهو يذكر بوجود اتجاه نحو العقل هنا وهناك في الكم الهائل من المادة الكونية وما يعادلها من طاقة ، بما يصاحب هذا العقل من غنى وكيف في الوجود وهو أكثر من هذا دليل على أهمية العقل والكيف والعملية التطورية الشاملة .

ان الفضل في انه اصبح الجانب السائد في هذا الكوكب او المسئول الذي يضطلع بمستقبل تطوره يرجع الى تميزه بالعقل لا غير وسيتمكن عن طريق استخدام عقله استخداما سليما من مباشرة تلك المسئولية بطريقة صائبة . ويجوز جدا ان يكون الفشل حليفه في هذا المجال ، وسيصيب نجاحا فقط اذا جابه مسؤوليته بوعي ، واذا استخدم كافة موارده العقلية ـ المعرفة والعقل والخيال والحساسية ، والقدرة على العجب والحب ، والفهم والتعاطف ، والامال الروحية وبذل الجهد الاخلاقي .

ويجب عليه أن يجابه العمل المنوط به دون عون خارجي . وفي النموذج الفكري والتطوري لم يعد هناك حاجة أو مجال لما فوق الطبيعة . ان الارض لم تخلق بل تطورت . وهذا هو الحال مع سائر الحيوانات والنباتات التي تسكنها بما فيها نفوسنا البشرية وما فيها من عقل وروح، ومخ وجسد . وهذا هو الحال مع الدين كذلك . والديانات هي أعضاء في الانسان النفسي الاجتماعي تعنى بالمصير البشري وبتجارب القداسة، وبتجاوز العالم المحسوس .

وفي تطورها أنجبت بعض الديانات (وليس كلها على الاطلاق) ، فكرة الالهة ككائنات فوق الطبيعة تتحلى بخصائص ذهنية وروحية وبالقدرة على التدخل في شئون الطبيعة بما فيها الانسان . وهذه الديانات التي تتضمن الايمان ، بالله عبارة عن أنظمة للفكر الانساني في تفاعله مع العالم المحير المعقد الذي يتعين عليه ان يتصارع معه ـ عالم الطبيعة الخارجي والعالم الداخلي من طبيعة الانسان . وهي في هذا تشبه تنظيمات الفكر الانساني الاولى وهي تواجه الطبيعة ، كمذهب العناصر الاربعة التراب والهواء والنار والماء ، أو كالفكرة الشرقية المؤمنة باعادة ولادة الانسان وتجسده . وسيؤول مصيرها كمصير هذه العبادات الى الاختفاء عندما يلوح في الافق ما ينافسها من أنظمة فكرية أكثر صدقا وأكثر شمولا ، وتعالج نفس المدى من التجربة الخام او المختزنة .

والانسان التطوري لم يعد يستطيع الفرار من وحدته بالاحتماء زاحفا نحو مأوى يقيه في أحضان اله من صنع الانسان نفسه ، خلقه في صورة أب مضفيا عليه الوان القداسة ، ولا ان يهرب من مسؤولية اتخاذ القرارات بالاحتماء تحت ظل سلطة الهية ، ولا ان يعفي نفسه من مهمته الشاقة في مجابهة مشكلاته الراهنة ، وتخطيط مستقبله بالاعتماد على ارادة عناية الهية تعلم كل شيء وان كانت لسوء الحظ غامضة ومبهمة ومن ناحية اخرى فان وحدته ظاهرية فقط . فهو ليس وحيدا كنوع . والفضل يرجع الى علماء الفلك في انه يعلم انه واحد من بين الكائنات الحية الكثيرة التي تشهد على وجود اتجاه نحو الحس والشعور ، والعقل والكينونة الفنية الخصبة ، وهو اتجاه يعمل على نطاق واسع للغاية وان كان وجوده في الكون نادرا للغاية . واكثر أهمية مباشرة من هذا ـ والفضل فيه يرجع الى داروين ـ انه الانسان يعرف الان انه ليس ظاهرة معزولة منفصمة عن بقية الطبيعة بسبب انفراده الذي لا مثيل له وهو ليس مكونا من نفس المادة ولا يعمل بمقتضى نفس الطاقة كبقية الكون جميعا فحسب ، ولكن على الرغم من كل تميزه عن سائر الكائنات الا ان وشائج من الاستمرار الوراثي تربطه بكل سكان كوكبه الاخرين الاحياء . والحيوانات والنباتات ، والكائنات الحية المصغرة Micro-organisms هي ابناء عمه جميعا ، او تمت اليه بصلة قربى اكثر بعدا وهي جميعا أجزاء لمجرى واحد متفرع ومتطور من البروتوبلازم المتغير .

وليس الانسان من الناحية الفردية وحيدا في تفكيره . فهو يعيش ويحقق وجوده في بحر الفكر غير الملموس الذي اطلق عليه تيلهارد دي شاردين teilhard de chardin أسم اليوسفير noôsphere اي منطقة الفكر ونتاجه بنفس الطريقة التي يعيش بها السمك ويحقق كينونته في بحر الماء المادي الذي يضمنه الجغرافيون تحت اسم الهيدروسفير hydrosphere وفي منطقة الفكر (النوسفير) ورهن اشارته تطفو الافكار الجريئة والمثل الطامحة لاناس قضوا منذ زمن بعيد، والمعرفة العملية المنظمة ، وحكمة الاقدمين الناصحة واخيلة كل شعراء العالم وفنانيه الخلاقة . وهناك في طبيعته طائفة من المساعدين الكوامن الذين يمكنهم ان يخفوا لمعاونته ينتظرون منه اشارة لاستدعائهم ـ كل امكانيات العجب والمعرفة ، والبهجة والاجلال وامكانيات الايمان المبدع الخلاق والاخلاقي والمعنوي وامكانيات الجهد المشبوب بالعاطفة والحب الشامل .

وعندما انظر الى الموقف يعين عالم البيولوجيا المؤمن بالتطور

أجدني اقارن المرحلة الراهنة للانسان المتطور باللحظة الجيولوجية التي مضى عليها نحو ثلثمائة مليون سنة عندما كانت اسلافنا البرمائيات تقوم لتوها بالخروج من عالم الماء والاقامة على اليابسة . ان هذه البرمائيات قد اقامت رأس جسر يصلها ببيئة جديدة للغاية . وحين لم يعد الماء يرفعها الى أعلى ، تعين عليها ان تتعلم كيف تسند نفسها حتى ترفع وزن اجسامها . ولما فقدت القدرة على العوم بسبب ذيلها العضلي، تعين عليها ان تتعلم ان تزحف باطراف ثقيلة غير خفيفة الحركة . وقد مكنتها منطقة الهواء الحديثة الاكتشاف من التوصل مباشرة الى الاوكسجين الذي كانت تحتاج اليه للتنفس وان كانت قد هددت اجسامها المبللة بالجفاف أيضا . ورغم انها نجحت في ان تعيش على اليابسة ، عندما كبرت واشتد عودها ، الا انها وجدت نفسها لا تزال مضطرة لان تكون سمكية خلال المراحل الاولى من حياتها . ومن ناحية اخرى ، بدات هذه البرمائيات تتمتع بحرية جديدة كاملة ، لقد كانت كأسماك حبيسة تحت سطح الماء الذي يحدها . اما الان فقد امتد الهواء فوقها الى نهائية الفراغ . كما انها تحررت الان من الولائم المكونة من الكائنات الصغيرة التي عملت على اعدادها وتكوينها المائة مليون عام السابقة من تطور الحياة على الارض . وقد وفر سطح الارض اليابس تنوعا في الفرص عظيما اكثر مما فعل الماء ، كما وفر كذلك للحياة المتطورة مدى للتحدي اكبر بكثير من المدى السابق . ولو كان لدى الكائنات الاستجوسفيلية(١) الاولى Stegocephilians خيال ، لكان من الجائز ان ترى امامها امكانية المشي والجري وربما حتى الطيران فوق الارض ، واحتمال تخلص سلالتها من عبوديتها نحو زمهرير الشتاء بتنظيم درجة حرارتها ، واحتمال التخلص من تقيدها بالمياه بانشاء برك لتطورها الاول ، وحتمية انبثاق عقولها الى مستويات جديدة من الوضوح والاداء . ولكنها ، في نفس الوقت كانت سترى نفسها مشدودة الى وجود مبهم غامض ـ لا هو بهذا الشيء او ذلك ـ على الهامش الضيق المبلل بين الماء والهواء . وكان في امكانها ان ترى ارض الميعاد على مبعدة ولكن في غير وضوح خلال عيونها الطمشاء المظلمة . ولكنها كانت سترى ايضا انه يتعين عليها حتى تصل الى ارض الميعاد ان تمر خلال تغيرات كثيرة عسيرة وشاقة في وجودها وطريقة حياتها .

وهكذا الحال معنا . لقد خرجنا من منطقة التطور البيولوجية الى منطقة التطور النفسية ـ الاجتماعية منذ وقت قريب فقط . من المنطقة البيولوجية على الارض الى حرية منطقة الفكر (نوسفير) . ولا ينبغي ان ننسى قرب عهدنا بهذا الخروج . لقد اكتمل الانسان اكتمالا حقا ربما لمدة عشر مليون سنة (مائة الف عام) ـ ولا تعدو هذه الفترة ان تكون ضربة في ساعة التطور . وحتى منذ ظهور اول انسان عشنا اقل من مليون سنة . وهي فترة اقل من اثنين بالالف من الزمن الذي استغرقه التطور . ولان اطار الغرائز لم يعد يسندنا ويوجهنا فنحن نحاول ان نستخدم افكارنا واغراضنا الواعية كأدوات في القاطرة النفسية ـ الاجتماعية وكتوجيه لنا خلال نسيج وجودنا المتشابك المعقد . ولكننا حتى الان لم نصب الا نجاحا متوسطا مع انتاج الكثير من الشرور والفظاعات الى جانب شيء من الجمال وتحقيق بعض المجد . ونحن ايضا قد استوطنا هامشا مبهما لا غير بين بيئة قديمة محدودة ، وارض الحرية الجديدة . وما زلنا نجر اقدامنا في الوحل البيولوجي ، حتى ونحن نرفع رؤوسنا في الهواء الواعي . ولكننا نستطيع على خلاف اسلافنا البعيدين منا ان نرى حقا شيئا من ارض الميعاد يلوح امامنا . ونحن نستطيع ان نفعل هذا بمعونة منظارنا الجديد الذي يساعدنا على الرؤية ـ منظار خيالنا العقلي القائم على المعرفة . وهو كتلسكوبات ما قبل جاليليو الاولى لا يزال بدائيا للغاية ويعطينا صورة ضعيفة ، بل شائهة في أغلب الاحيان ولكنه مثل التلسكوبات الاولى يمكن ادخال التحسينات عليه ، ويستطيع ان يكشف اسرارا كثيرة في بيئتنا ومصيرنا القائم في منطقة الفكر .

ولسنا بحاجة في نفس الوقت الى تلسكوب ذهني حتى نرى أرض التطور المباشرة او القريبة منا ، وما يكتنفها من مشاكل مخيفة . وكل ما نحتاج اليه ـ وليس هذا بالقليل ـ هو ان نكف عن كوننا نعاما فكريا واخلاقيا ، وان نخرج رؤوسنا المطورة من تحت رمال العمى العنيد الضار . واذ فعلنا هذا ، فسوف نرى حالا ان المشاكل المخيفة التي تجابهنا ذات وجهين ، وانها ايضا بواعث للتحدي المنشط .

ما هي تلك الوحوش التي تتحدانا وتعترض طريقنا التطوري ؟ سأعددها فيما يلي : التهديد بحرب فوق علمية بما تتضمنه من حرب نووية وكيماوية وبيولوجية . الاخطار التي تنطوي عليها زيادة السكان . نشأة الايديولوجية الشيوعية التي تروق للناس وخاصة في قطاعات العالم غير المحظوظة . الفشل في ادخال الصين التي تحوي ما يقرب من ربع سكان العالم في المنظمة الدولية لهيئة الامم المتحدة . الافراط في استغلال الموارد الطبيعية . تآكل وتفتت التنوع الثقافي في العالم انشغالنا العام بالوسائل اكثر من اهتمامنا بالغايات ، وبالتكنولوجيا والكم اكثر من الخلق والابداع ، ومن الكيف . ثورة الانتظار (انتظار تحقيق الرفاهية) التي تسببها الهوة التي تزداد اتساعا بين الاثرياء والمعدمين ، وبين الامم الغنية والامم الفقيرة . وهذا اليوم الذي نحتفل فيه بذكرى داروين يتفق مع حلول عيد تقديم الشكر في امريكا .

ولكن السبب الذي يدعو الملايين من الاحياء الان الى تقديم الشكر على أي شيء ، واه وضعيف . وحين كنت في الهند في الربيع الماضي ، القى القبض على رجل هندوكي لانه قتل ابنه الصغير . وشرح الرجل ارتكاب جريمته بقوله ان تعاسته بلغت به الى حد جعله يقتل الصبي ليقدمه ضحية وقربانا على مذبح الالهة كالي ، يحدوه الامل في ان تقدم اليه هذه الالهة المعونة والمساعدة مقابل ذلك . هذه حالة متطرفة وشاذة . ولكن لنذكر ان ثلثي سكان العالم قليلي الحظ ، ويعانون من سوء التغذية والصحة والتعليم ، وان ملايين كثيرة منهم تعيش في قذارة وعذاب وليس هناك في حياتهم الكثير مما يوجب تقديم الشكر غير الامل في ان تمتد يد المعونة لتساعدهم على الهروب من هذا الشقاء . واذا نحن في الغرب لم نقدم لهم المعونة فسيتطلعون الى نظم اخرى لتعينهم وتساعدهم ـ او يصل الامر بهم الى التحول من الامل الى اليأس المدمر .

ونحن نحاول ان نعالج هذه المشكلات جزءا بجزء ، وبطريقة نصف مخلصة ونصف قلبية في اغلب الامر . ونحن نرفض احيانا ، كما هو الحال مع مشكلة السكان ، ان نعترف بها رسميا كمشكلة عالمية (تماما كما نرفض ان نعترف بالصين الشيوعية كقوة عالمية) وفي الحقيقة، ليست هذه المشكلات وحوشا ممسوخة الخلقة منفصلة يعالج كل منها على حدة عن طريق سلسلة من المغامرات المنفصلة مهما كانت هذه المغامرات تتسم بطابع البطولة والقداسة . فهذه المشاكل جميعا اعراض موقف تطوري جديد ، ولا يمكن مجابهته بنجاح الا على ضوء وبمساعدة تنظيم جديد في الفكر والعقيدة ونموذج من الافكار سائد جديد ، وله صلة بالموقف الجديد .

من الصعب تحطيم الاطار الراسخ المتين لاي نظام عقائدي اصطلح الناس عليه ، كما انه يصعب بناء انظمة جديدة ومعقدة تحل محلها . ولكن هذا امر ضروري . ومن الضروري ان ننظم افكارنا التي تخدم اغراضا موقوتة، والقيم المبعثرة المتناثرة المتنافرة في نموذج موحد يتجاوز الصراعات ويتخطى الخلافات ، ويؤلف بينهما في نسيج وحدوي . وبمثل هذا التوفيق بين الاضداد والمتناقضات فقط ، يستطيع نظامنا الفكري ان يحررنا من الصراعات الداخلية . وبهذا وحده نستطيع ان نكسب الطمأنينة والتأكيد السلمي الذي سيساعدنا على اطلاق طاقاتنا من عقالها من اجل التطور في الفعل العملي الشاق .

سيرتكز نموذجنا الجديد في الفكر حول التطور . وسيعطينا الثقة والطمأنينة بتذكيرنا بنشأتنا التطورية الطويلة وكيف كان هذا

---

(١) اسم يطلق على نوع من البرمائيات المنقرضة (الموجودة على شكل حفريات) تتميز بوجود غطاء عظمي حول الرأس يعكس البرمائيات الحديثة للمترجم .

ـ مما يدعو للغرابة والعجب ـ نشأة العقل ايضا . كما سيذكرنا كيف ان تلك النشأة بلغت ذروتها في ظهور العقل على انه العامل الحاسم في التطور ، وانتهت الى نجاحنا التطوري الرائع رغم انه محفوف المخاطر . وسيعطينا نموذجنا الجديد في التفكير الامل بالاشارة الى الدهور التطورية التي تلوح امام نوعنا البشري في المستقبل اذا لم يدمر نفسه او يطيح بالفرص التي تتوفر لديه ، كما سيعطينا الامل بتذكيرنا كيف ان الزيادة في فهم الانسان وادراكه ، وكيف ان تحقيق التنظيم المتحسن في المعرفة قد مكناه في حقيقة الامر من القيام بسلسلة كاملة من التقدم مثل السيطرة على الامراض المعدية او الكفاءة في المواصلات بين المسافات الشاسعة ، ومن تخطي حدود مجموعة كاملة من الاضداد كان يبدو الا سبيل الى التوفيق بينها مثل الصراع بين الاسلام والعالم المسيحي او الصراع بين السبعة ممالك الانجلو سكسونية (١) وبتذكيرنا بمستودعات نشاطنا الانساني الهائلة وفاعليته ـ من الذكاء والخيال والنية الطيبة ـ التي لم ينكشف النقاب عنها حتى الان .

وتنظيمنا الفكري الجديد ـ سمه ما شئت : النظام العقائدي ، اطار القيم ، الايدلوجية ـ يجب ان ينمو ويتطور على ضوء نظرتنا التطورية الجديدة . ولهذا يجب ان يكون في المكان الاول مؤمنا بالتطور بطبيعة الحال ، اي انه يجب ان يساعدنا على التفكير باسلوب ينطوي على الايمان بعملية تغير وتطور شاملة وبامكانية التحسن ، كما يساعدنا على ان نوجه انظارنا الى المستقبل اكثر من الماضي ، وان نجد سندا في نمو وانتشار مجموعة معارفنا التي تدعو في غير تبشير ، بدلا من الاطار الجامد الذي يضم المسلمات الجامدة في غير تطور بدلا من السلطة القديمة . كما يجب ان تكون النظرة التطورية علمية ، لا بمعنى انها نرفض او تهمل نواحي النشاط الانساني الاخرى ولكن بمعنى الايمان بقيمة الاسلوب العلمي في استخلاص معارفنا من براثن الجهل واستخلاص الحقيقة والصواب من الباطل والخطأ . وبمعنى انها تقيم نفسها على اساس متين من المعرفة العلمية الراسخة . ونظرتنا التطورية تغاير معظم المعارف اللاهوتية في انها تقبل حتمية التغيير بل تعلن عن الرغبة فيه ، وهي تحقق التقدم بالترحيب بالاكتشاف الجديد حتى لو تعارض مع اساليب التفكير القديمة .

والطريقة الوحيدة التي يمكن بها اصلاح ذات البين الراهنة بين الدين والعلم سيتحقق بقبول العلم لحقيقة الدين وقيمته كوسيلة عند الانسان المتطور ، وبقبول الدين مبدأ وجوب تطور الاديان اذا شاءت الا تندثر او تتحول على احسن تقدير الى حفريات حية عفى عليها الدهر ، تقاوم من اجل البقاء في بيئة جديدة وغريبة .

ويجب بعد ذلك ان تكون النظرة التطورية عالمية . فالانسان يقوى وينجح بقدر عمله وتعاونه في مجموعات تتبادل التفكير فيما بينها مما يمكنها من تجميع معارفه وعقائده .

واذا اراد الانسان ان يصيب اي نجاح في تحقيق مصيره كسيد لتطوره في المستقبل على الارض وكمتحكم فيه فيجب عليه ان يأتلف في مجموعة واحدة تتبادل الفكر فيما بينها داخل اطار واحد عام من الافكار ، والا تبددت طاقاته الذهنية في صراع ايدلوجي . ويعطينا العلم سلفا صورة لما يمكن ان يكون . وقد اصبح العلم عالميا بالفعل تتضافر فيه جهود العلماء في كل دولة للاشتراك في دفعه نحو التقدم . ولكون العلم عالميا فهو يتقدم بسرعة . ويجب علينا ان نهدف في كل ميدان الى تخطي القومية وتجاوز حدودها . واول خطوة في سبيل تحقيق هذا هو التفكير في اطار عالمي ـ في كيفية هذا العمل او ذاك عن طريق التعاون الدولي اكثر من طريق العمل المنفرد .

ولكن يجب ان يعني تفكيرنا بالفرد ايضا . فالانسان النامي نموا حسنا ، والذي تسير حياته بمقتضى نموذج حسن هو ، بالمعنى العلمي الضيق ، ارفع ظاهرة يصل اليها علمنا . والتنوع في الشخصيات الفردية هو ارفع مراتب العالم غنى وخصوبة .

وعلى ضوء النظرة التطورية ، ليس هناك ما يدعو الفرد الى ان يشعر انه مجرد ترس لا معنى له في الالة الاجتماعية ، ولا مجرد فريسة لا حول لها ولا قوة ، ولعبة تفعل بها ما ما تحلو لها قوى هائلة خارجة عن الانسان ولا تحفل بمصيره وهو يستطيع ان يفعل شيئا من اجل تطور شخصيته ، واكتشاف مواهبه وامكانياته ، وحتى يتفاعل بشخصية وبطريقة مثمرة مع بقية الافراد ، ويكتشف شيئا من دلالته.واذا تحقق له هذا فسيكون قد حقق في شخصه قدرا هاما من الامكانية التطورية ، كما سيكون قد اشترك بصفاته الشخصية في استكمال المصير الانساني وتحقيقه . وسيتأكد الانسان من اهميته ودلالته بالنسبة الى الكل الاكبر والاكثر ديمومة الذي يكون الانسان احداجزائه.

لقد تحدثت عن الكيف ويجب ان يكون هذا الكيف المفهوم السائد في نظامنا الفكري ـ الكيف والخصوبة لا الكم والتشابه والمطابقة ـ ورغم انه يجب ان يكون نموذجنا الفكري الجديد وحدويا ، الا انه ليس هناك ما يدعو الى ان يكون معطلا ومقيدا ، او ان يفرض مطابقة وتشابها ثقافيا سقيما او مملا ، ويتصف النظام المنسق سواء في الفكر او التعبير او الحياة الاجتماعية او اي شيء آخر بشيء من الوحدة والخصوبة معا . والتنوع الثقافي في العالم بوجه عام وداخل الاقطار المنفصلة هو توابل الحياة ومشهياتها . ومع ذلك ، فالاخطار تتهدده كما انه في واقع الامر يتآكل بفعل الانتاج بالجملة الالي Mass - production والمؤصلات الالية الضخمة Mass-Communication والمطابقة السلوكية الشاملة Mass-conformity

وسائر القوى الاخرى التي تعمل من اجل التشابه في حياة الناس حتى تجرى وفق انماط واحدة ـ والتشابه المفروض كلمة قبيحة لشيء قبيح. وعلينا ان نعمل جاهدين من اجل الحفاظ على التنوع الثقافي وتنميته .

والتعليم هو احد المجالات التي يمكن بل ينبغي تشجيع التنوع الثقافي فيها . والتنوع في المواهب والقدرات يقابل بالفعل الان التثبيط وعدم التشجيع في نظم مدرسيه كثيرة تحت ستار ما يسمى بالمساواه الديموقراطية . ونتيجة لذلك فان الخيبة والاحباط يصيبان الاطفال الاقل ذكاء نظرا لانهم يدفعون الى الدرس والتحصيل بسرعة اكبر مما ينبغي، بينما ان الخيبة والاحباط يصيبان الاطفال الاكثر لمعانا وذكاء نظرا لتعطيلهم وللملل الذي يدركهم ، وينبغي على نظامنا الفكري الجديد ان يلقى باسطورة المساواة الديموقراطية عرض البحر فالبشر يولدون متساوين في المواهب او الامكانيات والتقدم الانساني ينبع اساسا من حقيقة عدم مساواتهم بالذات وينبغي ان يكون شعارنا « احرارا غير متساوين » كما ينبغي ان يكون هدف التعليم هو التنوع في الامتياز والتفوق ، وليس تحقيق المستويات العادية المتشابهة في نظير في نصف القرن الماضي يمثل بجلاء المبدأ الماركسي الذي يتلخص في

والسكان هم الناس في مجموعهم وقد بات من الضروري ، فيما يتعلق بالسكان بالذات ، اجراء اكبر تعديل اثرا وفاعلية او اعادة تنظيم كاملة في اسلوب تفكيرنا . وانفجار مشكلة السكان التي لم يسبق لها السلوك او مجرد التعديل والتاقلم او الملاءمة .

الانتقال من الكم الى الكيف . فمجرد الزيادة في (كم) الناس يؤثر في تزايد على (كيف)حياتهم ومستقبلهم . ويكاد يكون اثره سيئا بوجه عام .

وقد نجحت بالفعل زيادة السكان في تحطيم وتفتيت الكثير من موارد العالم ـ التي توفر حياة الكفاف المادي كما توفر المتعة الانسانية وتحقيق البشر لذواتهم ـ وهو امر له نفس القدر من الضرورة والاهمية وان كان مهملا في اغلب الاحيان . وفي بادىء التاريخ الانساني كان الداعي للزيادة والتكاثر صائبا وسليما . ولكنه خطأ في الوقت الراهن ، وسيجر الاستمرار فيه عواقب وخيمة . وعلى العالم الغربي والولايات المتحدة بالذات ، ان يقوم بالعمل العسير لقلب وجهة تفكيره وتعديلها فيما

---

(١) اصطلاح استحدثه مؤرخو القرن الثامن عشر للدلالة على السبع ممالك السكسونية المفروض انها كانت موجودة في بريطانيا قبل سنة ٨٠٠ بعد الميلاد وهو نورثمبريا ـ ميرسيا ـ انجليا الشرقية اسكس ـ كنت ـ سسكس ـ وسكس ـ المترجم ـ

يتعلق بالسكان . وعليه ان يبدأ التفكير في ان هدفنا لا ينبغي ان يكون التكاثر بل والنقصان الاكيد السريع . النقصان في نسبة تزايد السكان . وسيتم في نهاية المطاف ، بتأكيد مماثل ، نقصان في العدد المطلق لسكان العالم بما فيه بلادنا نفسها ، فمنظر زيادة السكان المتفجرة يدفعنا لان نسأل السؤال البسيط وان كان اساسيا ، « ما الغرض من وجود الناس ؟ » . وسنرى ان الاجابة يجب ان تتعلق بصفاتهم وكيفهم كادميين ، وبكيف حياتهم وما ينجحون في تحقيقه .

ويجب ان نقوم بقلب مماثل للافكار الخاصة بنظامنا الاقتصادي . وفي هذه اللحظة (وانا آخذ مرة اخرى الولايات المتحدة باعتبار انها اكثر تمثيلا) يقوم نظامنا الاقتصادي في الغرب (الذي يغزو مناطق جديدة بثبات وثقة) على الانتاج المتمدد من اجل الربح . والانتاج من اجل الربح قائم على الاستهلاك المتوسع المتمدد . وكما يقول واحد من الكتاب فان الاقتصاد الامريكي يعتمد على حث اكبر عدد من الناس على الاعتقاد بانهم يريدون ان يستهلكوا منتجات اكثر وينتهي هذا الى الافراط في الاستغلال الجائر للموارد التي ينبغي المحافظة عليها ، كما يقود الى الاعلان المفرط الهائل ، والى تبديد الموهبة والطاقة في مجاري غير منتجة ، والى تحديل الاقتصاد ككل بعيدا عن تأدية وظائفه الحقة .

ولكن هذا الانفجار الاستهلاكي ، شأنه في ذلك الانفجار في زيادة السكان ، لا يمكن ان يستمر لفترة اطول . وهو بطبيعة تكوينه عملية تحكم بالفشل على نفسها بنفسها . سنضطر في القريب العاجل ، وليس في المستقبل البعيد ، ان نتخلص من نظام قائم على الزيادة المصطنعة في عدد الحاجات الانسانية وان نبدأ في اقامة نظام يهدف الى ارضاء الحاجات الانسانية الحقة ارضاء كيفيا ، وهي حاجات روحية وذهنية كما انها مادية وفسيولوجية . وهذا معناه نبذ العادة الخطرة التي تتجلى في كل مشروع انساني على اساس فائدته فقط ـ فائدته المادية فقط التي يعنيها القائمون بأمر التعميم ، خاصة فائدته في ان يدر ربحا على بعض الناس . واذا نحن آمنا حقا (والايمان الحق ، مهما كان ضروريا ، يسهل وجوده فيما ندر). نعم اذا نحن آمنا حقا ان مصير الانسان هو ان يجعل في الامكان استكمالا وتحقيقا اعظم لذوات عدد اكبر من البشر ، كما ان يوفر للمجتمعات الانسانية تحقيقا واستكمالا لذاتها اوفى ، فستصبح الفائدة بمعناها المعتاد مسألة ثانوية . والكم في الانتاج ضروري بطبيعة الحال كأساس لارضاء الحاجات الانسانية الاولية ـ ولكن في حدود معينة فقط . فالزيادة في نصيب الفرد التي تربو على عدد معين من السعرات الحرارية او الكوكتيلات او اجهزة التلفزيون او غسالات الكهرباء ليست غير ضرورية فحسب ، بل ضارة ايضا . ويمكن ان يكون الانتاج المادي وسيلة فقط لغاية ابعد ، وليس بغاية في حد ذاته .

وتشمل الغايات الهامة في حياة الانسان خلق الجمال والاستمتاع به سواء كان هذا الجمال طبيعيا ام من صنع الانسان نفسه ، كما تشمل الفهم المتزايد وأحساسا اكثر تأكيدا بمدلوله واهميته ، والمحافظة على كل منابع العجب الصافية والبهجة النقية كالتي تتجلى في المناظر الطبيعة التي لم تدركها يد الافساد ، وتحقيق السلام والانسجام الداخلي الطبيعة التي لم تدركها يد الافساد ، وتحقيق السلام والانسجام الداخلي والشعور بالمشاركة الايجابية الفعالة في عمليات شاملة وباقية بما فيها عملية التطور الكونية . ومن خلال مثل هذه الاشياء يمكن للافراد ان يحققوا قدرا اعظم من الاستكمال . والامم والمجتمعات لا تذكر لثرواتها او ادوات الراحة او النواحي التكنولوجية ولكن تذكر بسبب عمائرها العظيمة واعمالها الفنية الضخمة ، وما تحققه في العلوم او القانون او الفلسفة السياسية ، وبنجاحها في تحرير الحياة الانسانية من قيود الخوف والجهل التي يرسف فيها .

وعلى الرغم من ان الانسان مدين بالفضل الى عقله للمركز السائد الذي يحتله في عمليات التطور في اي تقدم يجوز انه قد اصابه وهو يحتل ذلك المركز ، الا انه لا يزال يجهل عقله وينظر اليه نظرة قائمة على الخرافة والخزعبلات (١). لقد بدأ استكشاف مجاهل العقل لتوه .

ويجب ان يكون هذا الاستكشاف احد واجبات العهد القادم الرئيسية تماما كما كان استكشاف سطح الارض منذ بضعة قرون خلت . وسيكشف الاستكشاف السكولوجي دون ريب كثيرا من المفاجئات كالتي رفع النقاب عنها الاستكشاف الجغرافي ، وسيوفر لاحفادنا سائر انواع الامكانيات الجديدة لحياة مستكملة واكثر غنى وخصبا من سابقتها .

وأخيرا فالنظرة التطورية يمكننا ولو بصورة ناقصة من تمييز معالم الدين الجديد الذي يمكن ان نوقن من ظهوره لخدمة احتياجات العهد القادم . وكما ان البطون هي أعضاء الجسم التي تعنى بعملية الهضم وتنطوي على النشاط الكيماوي ـ البيولوجي لعصارات معينة ، فان الاديان كذلك هي اعضاء نفسية ـ اجتماعية تعنى بمشاكل المصير الانساني ، وتتضمن شعور القداسة والاحساس بالصواب والخطأ . ومن المحتمل ان تكون الحاجة الى دين من أي نوع ضرورة . ولكن هذا ليس بالضرورة شيئا حسنا . فهو لم يكن شيئا حسنا عندما قتل الهندوكي الذي قرأت عنه في الربيع الماضي ابنه كضحية دينية . كما انه ليس شيئا حسنا انالضغط الديني قد حرم نظرية التطور في تينيسي لانها تتعارض مع معتقدات الحرفيين في فهم الدين Fundamentalists وليس شيئا حسنا ان تتعرض النساء في كونكتيكوت ، وماساشوسيت للعذاب الاليم لان ضغط الكنيسة الرومانية ـ الكاثوليكية لا يسمح حتى للاطباء بالادلاء بمعلومات عن تحديد الفشل حتى لغير الكاثوليك . وليس شيئا حسنا ان المسيحيين قاموا باضطهاد المهرطقين ، بل واحراقهم . وليس شيئا حسنا ان تضطهد الشيوعية ـ في صورتها الدينية التي تتضمن الايمان بالمسلمات ـ المنحرفين عنها بل وتقوم باعدامهم .

ويمكن ان يكون الدين المنبثق في المستقبل القريب شيئا حسنا . فهو سيؤمن بالمعرفة . وسيتمكن من الاستفادة بالقدر الهائل من المعرفة الجديدة ، التي جاءت نتيجة تفجر المعرفة في القرون القليلة الماضية ، في اقامة ما يمكن ان نسميه بلاهوت الدين الجديد ـ وهو الاطار الذي يحتوي على الحقائق والافكار التي تمده بالتأييد الفكري. وينبغي ان نتمكن بما لنا من معرفة ازدادت عما قبل فيما يتعلق بدراسة العقل ـ من تحديد احساس الانسان بما هو صواب وما هو خطأ بوضوح اكبر حتى يمده بسند اخلاقي افضل ، ومن تركيز ضوء الشعور اقداسه على اشياء اكثر لياقة بنا . وبدلا من عبادة حكام فوق الطبيعة سيقدس الانسان المظاهر العلوية من الطبيعة البشرية في الفن والحب ، والادراك الفكري ، والعبادة الطامحة وسيؤكد التحقيق الاكبر والاستكمال الاعظم لامكانيات الحياة على انهما وديعة قدسية .

وهكذا نرى ان النظرة التطورية التي فتح لنا بابها تشارلس داروين لاول مرة منذ قرن مضى ، تضيء وجودنا بطريقة بسيطة ولكن تكاد تكون غامرة . هذه النظرة تمثل الحقيقة التي تتجلى في كون الحقيقة عظيمة وسيكتب لها النصر ، كما تمثل الحقيقة الاعظم التي تتجلى في كون الحقيقة ستطلق سراحها وتهبنا الحرية . والحقيقة التطورية تحررنا من الخوف والخضوع نحو المجهول ونحو ما فوق الطبيعة ، وتحثنا لمجابهة هذه الحرية الجديدة ، في شجاعة تلطفها الحكمة ، مع امل تلطفه المعرفة . وهي تبين لنا مصيرنا وواجبنا وتبين لنا العقل جالسا على عرشه فوق المادة كما تبين ان الكم ثانوي بالنسبة للكيف . وهي تمنح عقولنا القلقة المؤازرة والتأييد بالكشف عن الامكانيات التي لا تصدق التي تم بالفعل تحقيقها في ماضي التطور ، وبالاشارة الى الكنز المخبيء للامكانيات الجديدة التي لا تزال تنتظر التحقيق . وهي حافز قوى لنا لاستكمال دورنا التطوري في مستقبل كوكبنا البعيد الامد .

« البقية في العدد القادم »

---

(١) تتلخص الخرافة السلوكية شبه العلمية في انكار ان العقل كأي وجود فعال ، غير وجود يشبه شبحا باهتا ، وفي افكار العقل ونتاجه على انهما امور خارجية عن نطاق الاستقصاء العلمي . اما الخرافة المثالية فتنكر على العكس من ذلك وجود اي شيء اخر غير العقل(ج. هكسلي)